التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة التاسعة: التوحيد في المنظومة العملية للإسلام

التأصيل الإسلامي؛ المحاضرة التاسعة من سلسة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل 46 سنة

التوحيد في المنظومة العملية للإسلام

الجمعة 10 رمضان المبارك 1394 هجرية

الإنسان الإلهي يقول إن ما وراء هذه المشهودات حقيقة أسمى وأعظم مما نشاهده، ولو لم تكن تلك الحقيقة ما وجدت هذه الظواهر المشهودة. والإنسان المادي يقول: لا نستطيع أن نؤمن بغير هذه المشهودات، لم نجد في المختبرات ما يدلّ على ما يقوله الإلهيون.

دعنا عن أقوال اليونانيين والرومان القدماء بشأن هذه المسألة، حديثنا عن الماديين في عصرنا. نحن نعتقد أن هؤلاء الماديين في عصرنا يطلقون هذه المزاعم لأنهم يعانون من عقدة فكرية ونفسية تجاه المدرسة الإلهية. هؤلاء يخالون أن إقامة العدل وإزالة التمييز في المجتمع لا تتحقق إلاّ في ظل الفكر المادي، ومن هنا يُعرضون عن المدرسة الإلهية. لو أمعنتم النظر في الحياة الفكرية لأتباع المدرسة المادية في عصرنا لتبين لكم صحة ما نقول. ليس رفضهم لوجود ا عن عناد تجاه الخالق، ولا بسبب عدم عثورهم على استدلال فكري لإثبات وجوده، إذ لا يمكن أن يكون هناك استدلال فكري على نفي وجود ا، لا الآن ولا في الماضي، لا تستطيعون أن تجدوا ماديًا في العالم يطرح دليلا على عدم وجود ا، بل قصارى قولهم أنه لم يثبت لنا وجود الباري، وأنه لم نفهم ولا نقبل استدلال الإلهيين، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا بقوله: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)[1].

إذن ليست هناك فلسفة عقلية للإنكار، بل إن أنصار المدرسة المادية في عصرنا يخالون أن المدرسة المادية أقدر على إدارة العالم وعلى إنقاذه من الظلم والجشع والتمييز. والدين لا يستطيع أن يفعل ذلك. لماذا يصدرون حكمًا كهذا على الدين؟ لأنهم يفهمون الدين بمعناه التقليدي الشائع الموروث من عصر التخلّف. الدين الذي يكتفي بالعادات والتقاليد والطقوس ولا يحرك ساكنًا في المجتمع، لذلك يقولون عنه إنه أفيون الشعوب.

واضح أننا حين نواجه هذا المنطق ليس لنا إلا أن نقول: لو رأيتم دينًا يقرّ على ظلم الظالمين ويساند المستبدين، ولا يهتم بأمر المظلومين ولا يجدي نفعًا للمسحوقين فارفضوه إنا معكم رافضون. الدين الإلهي له خصائص معينة ومواصفات خاصة، إن توفرت نقبله وإن لم تتوفر نرفضه.

القرآن يقول: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[2] الأنبياء كلهم مرسلون من أجل أن يسود العدل

والقسط في حياة البشرية. هذا هو الدين. وإذا رأيتم دينًا يتجه خلاف هذا الهدف فهو إما أن لا يكون إلهيًا، أو أنه دين ممسوخ، هذه مسألة واضحة.

فيا أيها المادي الذي تدعي أن الدين عاجز عن إدارة المجتمعات البشرية، أسألك: أي دين؟ الإسلام؟ الإسلام الحقيقي؟ الإسلام المحمدي؟ أسلوب الحكم العلوي؟ هل رأيت في هذا عجزًا عن إدارة المجتمع؟ أين هذا العجز؟ إسلامنا هو الذي يحارب التمييز والطبقية، ويقسم الثروة بالعدل، ويوفر الفرص والإمكانات المتساوية أمام أفراد المجتمع، ويُعزّ الإنسان الذي كان يعيش في الذلّ وكان يُسخّر لارتكاب ألوان الجرائم من أجل فتات موائد الطواغيت. هذا الإنسان المنحط أعزّه الإسلام وأكرمه، وأكسبه الفضائل الأخلاقية والإنسانية، كل ذلك وفّره في ظل نظام عادل ومتقن.

التربية التي مارسها الرسول(ص) لم تكن تربية فردية، لم تكن الأخذ بيد الأفراد واحدًا واحدًا ودفعهم إلى الزوايا كي يتلوا الأوراد والأذكار، لم يكتف رسول الله(ص) بموعظة الناس وبيان الصحيح وغير الصحيح من الأعمال، بل إنه أرسى قواعد نظام اجتماعي مستحكم وفق أصول معينة، ودفع بالناس إلى الحركة في ظل هذا النظام وفي هذا المسير، وبهذا جعل منهم أفرادًا صالحين. وإذا أخذت بنظر الاعتبار هذا الإسلام ثم قلت أيها المادي المعاصر بأنه لا ينسجم مع ما نريد من تحقيق الرقي والعدل والأمن وتأمين احتياجات البشر، فذلك ما لا نقبله منك...! إذ هو خلاف الإنصاف.. خلاف الإنصاف.

لو أن مثقفًا في عالم المسيحية لم يَرَ مِنْ مظاهر الدين سوى الشفاعة الكاذبة وبيع صكوك الغفران فله الحق أن يطلق بحق الدين هذه الأحكام. أما أنت أيها المسلم كيف يحقّ لك ذلك وأنت ترى أن الإسلام يسجل أعزّ وأجمل التجليات الإنسانية في أفق العالم؟!

إذا كنت تقصد من الدين هذا الذي يدعو الناس إلى الركود والسكون والتقاعس والانصياع للظلم والتفرقة والتقاتل والتناحر، ويدعو الفقير إلى ترك السعي لكسب المال، ويدعو الغني إلى الاكتفاء بالتبرع للكنيسة أو لمؤسسة دينية بمبلغ من المال ليكون كفارة ما ارتكبه من ظلم في سبيل الحصول على هذه الأموال، إذا كنت تقصد هذا الدين المزيف فنحن نتجاوب معك. وكلانا حينئذ نردد مع القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَموَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ا￼ِ)[3] هؤلاء لا يكتفون بأكل أموال الناس ظلمًا وعدوانًا، بل أيضًا يقطعون الطريق أمام السائرين نحو ا￼. نعم مثل هذا الدين ليس بدين حقيقي، مثل هذا الدين الذي يكون وسيلة تساعد الظالمين والطغاة هو أسوأ من عدم التدين الذي قد لا يتحول إلى مثل هذه الوسيلة.

ثمة مسائل فكرية أرى من اللازم على الجميع أن يفهمها. إحداها أن التوحيد ينبغي أن لا يُطرح بصورة جافة وبشكل سؤال علمي عقلي، بل بصورة مسألة حياتية مصيرية. ولتوضيح ذلك أقول:

ربما تسير أنت في طريقٍ مع رفيق سفر ثم يدور بينكما نقاش حول طبيعة الأرض التي تقع على جانبي الطريق. أحدكما يقول إن هذه الأرض خصبة صالحة للزراعة والآخر يقول إنها أرض ملحية لا تصلح للزراعة. أنت تستدل وصاحبك يستدل، والسيارة تطوي بكما الطريق بسرعة. ليس في قصدكما شراء قطعة من تلك الأرض أو استثمارها للزراعة، وليس هدفكما اختبار تلك التربة. فالحديث بينكما ليس له أي تأثير عملي عليكما، وإثبات أنها خصبة أو ملحية لا يؤثر في مسيركما.. بل إن المسير يتواصل سواء ثبت هذا أو ذاك.

وفي حالة أخرى ربّما أنتما تركبان سيارة تتحرك بسرعة، وفجأة يقول صديقك أعتقد أن اتجاه حركتنا نحو الشمال بينما القصد هو الجنوب! وأنت تخالفه وتقول: لا نحن نسير نحو الجنوب. ويحتدم الكلام بينكما بشكل جادّ، إذ لو صحّ كلام رفيقك للزم استدارة السيارة إلى الوراء، ولو صحّ كلامك لو اصلتما المسير. أول تأثير لهذا النقاش أن السائق سوف يخفف من سرعته ليرى النتيجة، لأن النتيجة لها التأثير الكبير في المسار. وبحث التوحيد هو من هذا القبيل.

أولئك الذين يعيشون على مستوى المسؤولية والالتزام يجب أن يفهموا التوحيد بصورة غير الصورة المرتسمة في أذهان الذين يعيشون حياة البطر وعدم الالتزام.

قد يُخيل إلينا أن التوحيد مسألة تعيش في الأذهان دون أن يكون لها أثر في الخارج، ودون أن تكون عامل تأثير في الحياة. بينما التوحيد الذي يدعو إليه الإسلام هو أسمى من أن يكون جوابًا نظريًا على سؤال. التوحيد الإسلامي يعمل على صياغة نظام الحكم والعلاقات الاجتماعية، ويوجّه حركة التاريخ، ويرسم الهدف من هذه الحركة، ويقرر مسؤوليات الناس تجاه الله وتجاه بعضهم الآخر، وتجاه سائر مظاهر الطبيعة. ليس التوحيد بالأمر الذي تقول فيه إن الله واحد وليس اثنين وكفى.. إنه يعني أن الحقّ لله وحده في أن يكون مهيمنًا على حياتنا الفردية والاجتماعية.

«الله واحد» يعني أن ما تمتلكه من ثروة وما يمتلكه سائر البشر من ثروات إنّما هي لله وحده، أودعها لدى الناس لكي يتصرفوا فيها وفق ما عيّنه سبحانه: «المال مال الله جعلها ودائع عند الناس»[4].

الإيمان بالتوحيد ينفي التمييز الطبقي: «كلكم من آدم وآدم من تراب»[5]، وكرامة الإنسان عند الله

بالتقوى لا غير حين ترى تَعالي جماعة على جماعة في المجتمع فليس ذاك بالمجتمع التوحيدي.

الإيمان بالتوحيد يعني رفض العبودية لغير اﷲ، إذ لا تجتمع عبودية اﷲ مع عبودية غير اﷲ، فالإنسان في منظار التوحيد متحرر من أية عبودية سوى عبودية اﷲ.

لقد أدرك الإنسان المسلم هذه الحقيقة منذ انبثاق الرسالة، إذ نجدها على لسان ربعي بن عامر[6] حين دخل على رستم (قائد جيوش يزدجرد الساساني)، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وقد جلس على سرير من ذهب. دخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة.. فقالوا له ماجاء بكم؟ فقال:

«اﷲ ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اﷲ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..».

وما معنى عبادة العباد؟ نراها واضحة في تصرف الطواغيت مع الشعوب. يروى أن رجًلا في عصر الأخمينيين (الملوك الذين سبقوا الساسانيين في إيران) كان له أربعة أولاد، طُلبوا لكي يخرجوا مع الجيش المقاتل، فتوسّل بالسلطان أن يُبقي أحد أولاده عنده لأنه شيخ عجوز لا يقدر لوحده على إدارة أموره. فلم يحصل على جواب وأُخرج من مجلس السلطان. وحينما توجهت الجيوش إلى بوابة المدينة، وجدوا أن الابن الرابع الذي طلب والده أن يبقى عنده قد شُقّ جسده شقين، وعُلّق كل شقّ على جانب من البوابة!! كي لا يجرؤ أحد على المطالبة بإعفاء ابنه من الحرب. هذه هي العبودية. لا يحقّ للإنسان أن يطالب بأدنى حقوقه، لا يحق له أن يطالب بالعدل وبالإنصاف، لا يستطيع أن يعبّر عن فكره وإرادته. مثل هذه الحياة هي أسوأ أنواع العبودية. هذه العبودية أسوأ من عبودية استرقاق الناس في منطقة معينة وبيعهم في أسواق النخاسة.

«من عبادة العباد إلى عبادة اﷲ» وما معنى عبادة اﷲ؟ يعني التحرر، يعني أن تكون سيد نفسك، يعني الحركة نحو الكمال بحرية وبمقدار ما تريد. وهكذا كان الناس في المجتمع الإسلامي، كانوا عبادًا ﷲ لا عبيدًا للقوى المهيمنة، حتى في العصور التي انحرفت فيها المسيرة الإسلامية كان المسلمون يعيشون عبيدًا ﷲ دون سواه.

كان الحاكم يخاطب الناس فيما يروى: «أيها الناس من رأى فيّ اعوجاجًا فليقوّمه» فيجيبه رجل: «واﷲ لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا» ولا يتعرض هذا الرجل للأذى ولا للسجن.. هذه هي

الحرية.. ليست الحرية انفلاتًا من القانون، بل هي الالتزام بالقانون الصحيح فلا انصياع إلاّ للحق. إن كان الحاكم على حق في تصرفاته، وعلى هدى من ربّه فكلامه مقبول، وإلاّ فهو مرفوض.

«لنخرج من شاء... من ضيق الدنيا إلى سعتها» المجتمع الذي يفتقد الرؤية الصحيحة، لا يرى فيه الفرد سوى متطلباته الدنيوية ولذائذه المادية ومصالحه الآنية التافهة. لم يكن أفراد المجتمع في عهد يزدجرد[7] راضين بأجمعهم عن هذا الحاكم، كان فيه كثير من الساخطين، لكنهم خافوا أن يعلنوا معارضتهم كي لا يخسروا هذه التوافه التي يلهون بها في حياتهم، كي يأكلوا المزيد، ويتمتعوا بالمزيد من هذا العيش الوبيء، لم يكن الفرد في هذا المجتمع على استعداد لأن يهمّ بعمل من أجل حريته ومن أجل شرفه وأصالته وفضيلته الإنسانية. لماذا؟ لأن أفق الرؤية ضيّق.. الدنيا ضيقة في رؤيته.

وحين تشرف هذا الإنسان بالإسلام، أصبح كل شيء عنده مقدمة لهدف كبير.. لحياة رحبة واسعة.. لا أقصد الحياة بعد الموت، بل في هذه الحياة الدنيا أصبحت رؤيته واسعة بسعة الله. كل شيء يريده من أجل رضا الله. لذائذ الدنيا وحطامها ماعادت لديه ذات قيمة وأصالة، قيمتها تكتسبها حينما تكون «في سبيل الله». الدنيا والآخرة متصلتان في الفكر الإسلامي. وليس للحياة نهاية في نظر الإنسان المسلم فهي واسعة واسعة. والموت نافذة يطلّ منها الإنسان المسلم على نعيم الآخرة عندئذ يهون الموت عنده.

أشير إلى أن آية الكرسي التي تناولناها في الجلسة السابقة هي شعار رائع للتوحيد، ولعلّ هذا هو سبب التأكيد على تكرار تلاوة هذه الآية المباركة. ونبدأ بآيات هذه الجلسة، وأولها الآيات 165- 166 من سورة البقرة، وفيها تصوير لأحدمشاهد القيامة، وترتبط تمامًا بمسألة التوحيد.

(وَمِنَ النّاسِ مَن يَتّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا) يتخذون من دون الله شركاء من البشر أو من غير البشر.

(يُحِبّونَهُمْ كَحُبّ الله وَالّذِينَ آمَنُوا أَشَدّ حُبّا لِله)[8] هؤلاء يحبون هذه الأنداد كالحب الذي يجب أن يحملوه تجاه الله. لكن الذين آمنوا يحبون الله حبًا هو أشدّ من ذلك الحبّ الذي ينجذب إليه المنشدون بظواهر الحياة الدنيا وبالآلهة المزيفة، وبآلهة الأهواء والشهوات، وبالآلهة التي تتربع على صدر المجتمعات.

(وَلَوْ يَرَى الّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنّ الْقُوّةَ لِله جَمِيعًا) وينتقل المشهد فجأة إلى يوم القيامة، حيث يُحشر فيه الناس العابدون منهم لله والعابدون لغير الله.

والذين ظلموا يرون العذاب، ولا نعرف طبيعة هذا العذاب، ولا نستطيع أن نتصوّر كيفيته، ففي هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن نفهم طبيعة ما يجري في الآخرة، فنكتفي بما أخبرنا الله به. حين يرى الظالمون العذاب، يرون أن القوة يومئذ بأجمعها لله تعالى. في هذه الدنيا لكلّ فردٍ درجة من القوة، هناك من يمتلك قوة أكثر وهناك من يمتلك قوة أقل. ومن الطبيعي أن يتمتع الظالمون في الدنيا بقوة أكبر، وهذا الذي يعبد الظلمة يمتلك أيضًا في تصوّرة قوة لأنه ارتبط بقوة أكبر. ولكن هؤلاء جميعًا حين يرون هول الآخرة فإنهم يرون أن القوة لله جميعًا حيث كل شيء بيده: (لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ). هؤلاء الظالمون، وهؤلاء الذين كانوا يعبدون الظالمين يرون فجأة أن كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وسلطان وقصور وحياة مرفهة لم تكن إلاّ فراغًا في فراغ، وليس لأحد يومئذ قوة أمام قوة الله.

والظالمون هم — كما ورد في بعض تفاسير القدماء — هم من الذين خضعوا لغير الله، هؤلاء قد ظلموا في هذا الخضوع. هؤلاء حين يرون العذاب ويرون أن القوة لله جميعًا، فإنهم لا شك يندمون، وهذا هو الخبر المقدّر لأداة «لو»، يندمون على خضوعهم للظالمين، ويرون أنهم لا حول لهم ولا قوة. ولو كانوا من أهل الاعتبار لعلموا أنهم في هذه الدنيا أيضًا لا حول لهم ولا قوة.

بعدها ينتقل المشهد إلى مجموعتين: مجموعة عبدت المجموعة الأخرى، أي أطاعتها إطاعة عمياء. هاتان المجموعتان تتواجهان:

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) المتبوعون يتبرأون من التابعين، حين يرون العذاب وحين تقطعت بهم الوشائج والصلات. حينئذ يقول يزدجرد: إلهي أنا بريء من هؤلاء الذين عبدوني في حياتي. تصوروا كم أن هذه البراءة ثقيلة على قلوب التابعين الذين يرون أنهم خسروا الدنيا والآخرة.

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا) هؤلاء يدركون عندئذ أنهم كان عليهم أن يتبرّأوا من هؤلاء الطواغيت لا أن يكونوا لهم تابعين ذيليين، فيتمنون أن يعودوا إلى الحياة بهذه التجربة المريرة.

(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) والمسألة التي أردنا تبيينها هنا هي أن هؤلاء الذين ينالهم عذاب عبودية غير الله، أي الذين يمارسون ما يتعارض مع التوحيد هم في التعبير القرآني: التابعون (اتَّبَعُوا).

والحمد ﷲ رب العالمين.

---

[1] ـ الجاثية/ 24

[2] ـ الحديد/ 25

[3] ـ التوبة/ 34

[4] ـ عن الإمام الصادق: «تَرَى اﷲ أعطى من أعطى عند الرجل ودائع» بحار الأنوار، كتاب العشرة، أبواب حقوق المؤمنين، الباب 78، ح 6.

[5] ـ عن رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وآله وسلم: «إن اﷲ أذهب نخوة العرب وتكبرها بآبائها وكلكم من آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند اﷲ أتقاكم» المصدر نفسه، كتاب الكفر والإيمان، أبواب مكارم الأخلاق، باب 56، ح 10.

[6] ـ مبعوث الجيش الإسلامي

[7] ـ آخر الملوك الساسانيين في إيران.

[8] ـ المؤمن/ 16